وفي خضم الاحداث التي توالت سارعت الامم المتحدة الى وضع يدها على مبنى الكلية العربية ذات الموقع الاستراتيجي وعلى قصر الحكومة القريب منها والذي اتخذت منه مقرا رئيسيا لهيئة الرقابة الدولية على الهدنة . وقد تم في خلال ذلك نقل مكتبة الكلية العربية الى البلدة القديمة في القدس ووضعت الكتب في اماكن امينة ريثما يأتي اليوم الذي ينفض فيه الغبار عن المشروع «النائم». غير أنه في خلال عشرين سنة من الهدوء النسبي بعد ذلك ، لم يجد مشروع جامعة القدس طريقه الى النور او الى مجرد البحث والنقاش الجديين . فكل سؤال كان يطرح حول الموضوع لم يكن ليجد من يجيب عليه او من يريد بحث ذلك الموضوع « الشائك » . واصبح موضوع جامعة القدس مسألة سياسية من اختصاص السياسيين لا من اختصاص رجال الفكر والتربية . لم تكن المسألة مسألة مال او كتب او مبان او اساتذة . بل ان هذه الامور كانت اسهل ما في الموضوع . وسؤال لماذا لم تقم جامعة فلسطينية خلال السنوات العشرين التي تلت عام ١٩٤٨ هو شبيه بسؤال لماذا لم يقم كيان فلسطيني في تلك الفترة ؟ وسؤال لماذا لم تقم جامعة في القدس ، سواء اكانت فلسطينية او اردنية هو ايضا قريب من السؤال الاول . فالدول العربية الغنية وكذلك المتمولون والاثرياء من ابناء فلسطين لم يبخلوا على المشروع. بل واعربوا عن كامل استعدادهم للانفاق عليه . وفي وجه العراقيل السياسية كانت هنالك محاولات ذكية من ابناء المدينة ورجالاتها للالتفاف حول تلك العراقيل بانشاء معاهد عاليه يمكن ان تتطور بسرعة الى جامعة . وكان ابرز تلك المحاولات هو المعهد العربي الكويتي في القدس والذي برز الى حيز التنفيذ قبيل الاحتلال عام ١٩٦٧ .

ماذا حدث لمكتبة الكلية العربية وأين استقرت في النهاية تلك الكتب ؟ وماذا حدث لاموال المشروع المودعة باسمه من قبل حكومة الانتداب ؟ وماذا حدث لجميع المحاولات العربية والفلسطينية لانشاء جامعة في القدس ؟ جميع هذه الاسئلة تتفرع من السؤال الكبير : ماذا حدث للشعب الفلسطيني ذاته ؟ وكيف تعاون الاقربون والاعداء على محاولة طمس كيانه ووجوده حتى لا يكون له ادب قومي ومؤسسات قومية . تلك اسئلة يمر بها هذا البحث مر الكرام ، على اهميتها ، نظرا لانه مهتم بالواقع والمستقبل اكثر من الاهتمام بالماضي — ولعل من مهمة المؤرخ ان يقف عند هذه الاسئلة ويحقق ويدقق . ولكن غايتنا هنا ليست التاريخ ، وانما هي تتعلق بالحاضر والمستقبل .

لا مجال هنا للخوض طويلا في اثر الجامعة العبرية على تكوين شعب «اسرائيلي» في فلسطين واحياء اللغة والثقافة العبرية البائدة وبلورة الاهداف والوسائل والمؤسسات الصهيونية في فلسطين . ولكن يمكن مقارنة ذلك مع الوضع العربي حيث لم تكن هنالك جامعة عربية وكان التعليم تحت الاشراف المباشر لحكومة الانتداب البريطاني . وفي الوقت الذي انصرفت فيه المؤسسات الثقافية الصهيونية الى تخطيط التعليم اليهودي حسب متطلبات الاهداف الصهيونية كان هم الانتداب البريطاني حصر التعليم الثانوي في القلة العربية الممتازة وتحويلها الى طبقة من الموظفين والمدرسين .

يكشف لنا موشه مينوهين الكاتب اليهودي المناهض للصهيونية كيف ادخل الى مدرسة جيمنازيا هرتسليا في مطلع هذا القرن في مرحلة اعداده لكي يكون زعيما من زعماء الصهيونيين في فلسطين . وقد تخرج من تلك المدرسة مع موشه شرتوك الذي اصبح فيما بعد وزيرا للخارجية الاسرائيلية . وارسل موشه مينوهين الى جامعة كولومبيا في نيويورك لاستكمال اعداده للمستقبل . ولكنه انقلب هناك على الفكرة الصهيونية بعد ان تكشفت له حقيقتها اللا انسانية . هذه الحادثة تكشف لنا كيف كان الصهيونيون يختارون النجباء من اطفالهم ويعدونهم لكي يكونوا زعماء المستقبل كل في مجاله. وفي المقابل كانت سياسة حكومة الانتداب التعليمية تعمل على امتصاص الطلبة العرب النجباء لتحولهم الى موظفين في خدمة حكومة الانتداب . والقلائل الذين كانوا يرسلون في بعثات للدراسة في بريطانيا لم يكونوا احرارا في اختيار ما يناسبهم من دراسات بل كانوا في معظمهم يرسلون على أساس أن يعودوا للعمل في جهاز المعارف كمدرسين او اداريين .

وهكذا حرم الشعب العربي الفلسطيني من امكانية ان يصبح خيرة ابنائه زعماء له في المستقبل . فقد تم تدجين اصحاب المواهب وتحويلهم الى طبقة ممتازة من الموظفين . وقد توزع افراد هذه الطبقة بعد انتهاء الانتداب البريطاني واستخدمتهم الادارات البريطانية والشركات والمؤسسات الاجنبية في مناطق البترول مستفيدة من خبراتهم واخلاصهم